حاجى بابا فى انكلترا

تأليف جيمز موير

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل العاشر

علم الفلك عند الفارسيين وعند الانكليز

عند ما مضى تأثير الدهشة الأولى دخلنا الغرفة المعدة لجلوسنا فوجدناها فاخرة الرياش محلاة بالصور وعلى كل حائط منها مرآة فى إطار مذهب؛ أما الأتباع والخدم فقد جلسوا فى غرفة أخرى وعلقوا مسدساتهم وسيوفهم على حوائطها

وعند ما حان وقت النوم اختار كل منا سريراً يلائم ذوقه لاختلاف أنواع الأسرة كما تقدم. ولست أريد أن أذكر ما أصاب كلا منا من الدوار والقيء وغير ذلك من متاعب البحر

استيقظنا فى الصباح فلم نر البر فدهشنا وفزعنا لانقطاعنا عن العالم. وكان نظرنا مهما امتد لا يقع على غير الماء. فأين طهران وأين أصفهان وأين الاستانة؟ أين الجبال وأين السهول؟ لا شيء من ذلك يبدو لنا غير الأمواج المترامية، وشككنا فى إمكان الوصول إلى انكلترا لأننا لا نعرف مكانها ولأنه لا يظهر لنا فى الماء أى دليل نهتدى به. ثم لما قيل لنا إن انكلترا ليست إلا جزيرة فى وسط بحر كهذا زادت دهشتنا وقلنا إنه يستحيل أن يكون بها حكومة منظمة أو شاه قوى. ويستحيل أن تجبى بها الضرائب أو تصدر الأحكام. وقد تساءلنا عن بعض ما بدا لنا من الخواطر فظهر لنا أن القوم لا يفهموننا ولا نفهمهم، فقد قالوا إنهم يعرفون من علم الفلك نوعاً يدلهم على اتجاه السفن، وبعين المسافات بين بعض البلدان وبين بعضها الآخر، وبين موقع كل منها بالنسبة لغيره. مع أن علم الفلك كما نعرفه يدل على الطالع الحسن والطالع المنحوس وبين الساعات الموافقة للحجامة والسفر والزواج والحروب

وقد ظهر لنا أن علم الفلك عندهم سهل، فان الصبيان الذين فى السفينة كانوا يستعملون ما يشبه الاسطرلاب عندنا ولكنهم لا ينصبون خيوطاً. ثم هم يقولون فى الحال نتائج بحثهم بهذه الآلة. والعجيب هو تعلمهم شيئاً من هذا العلم فى مثل هذه السن لأن الفلك عندنا وإن كان مخالفاً لما يعرفونه عنه فهو صعب جداً لا يحيط به إلا طوال الأعمار الذين قضوا فى تعلمه عشرات السنين

وقد أمر السفير صاحبنا « محمد بك » بأن يبين لنا موقع أصفهان على طريقتهم فقال: إن النجوم تغيرت وإنه لم يعد فى وسعه مزاولة العلم الذى تعلمه على ميرزا قاسم فى أصفهان، وقال: إنه لم يعد فى وسعه حتى ولا استقراء الطوالع

تألم السفير من ذلك ألماً شديداً لأنه كان يريد تعاطى الدواء. فكلف شاباً من البحارة الانكليز أن يبين له بما يعرفه من علم الفلك هل تعاطى الدواء فى هذا الوقت مناسب أم لا؟ ففتح الانكليزى فمه وعينيه كالأبله وقال: إنه لا يدرك الصلة بين الدواء وبين

« التليسكوب » وقال ان الحساب الذى يجريه ليس بحروف الجمل عن أسماء الأشخاص ولكنه عن خطوط الطول وخطوط العرض على سطح الكرة الأرضية

فلم نفهم قوله ولكننا نسبنا غموضه إلى جهله وزاد احترامنا لمحمد بك وسائر علماء الفلك فى فارس

لكن الفلكيين الانكليز من بحارة السفينة أدهشونا بدقتهم الغريبة فى معرفة الأبعاد ، فانهم نظروا بآلاتهم الفلكية وحددوا الساعة والدقيقة والاتجاه اللواتي تظهر فيها اليابسة وقد صدقوا فى تحديد كل ذلك . ولما جددوا بذلك فى نفوسنا شيئاً من الثقة بهم كلفنا محمد بك بمباحثتهم في علمهم الفلكى ، فأجابوا بما قضى على تلك الثقة بتاتاً حيث زعموا أن الأرض كروية وأنها متحركة وأن الشمس هى الثابتة وأن القمر يدور حولها . ونحن نعلم عكس ذلك على خط مستقيم من أيام (جمشيد) . وختم محمد بك مجادلتهم بقوله : إنه لو كان الآن فى فارس لاستطاع أن يأتى لهم بالكتب التى يقنعهم بها

الفصل الحادى عشر

فى مالطة

فى الصباح التالى وجدنا السفينة الحربية التى تقودنا إلى شاطئ جزيرة « مالطة » وأخبرنا المترجم أنه كان يقيم في هذه المدينة جماعة من الدراويش النصارى في عهد حروب قال لنا إن اسمها الصليبية وإن الشرق اشتبك فيها مع الغرب . وقال إن المسلمين احتلوا هذه الجزيرة فى وقت من الأوقات وقتلوا من فيها من الدراويش

وقال إن للدراويش الذين تقدم ذكرهم مذهباً خاصاً فى الدين فهم لا يتزوجون طول الحياة

ولما أشرق النهار ونظرنا إلى الجزيرة وجدنا صوراً جديدة لكل مظهر من الحياة ، فالأبنية غير التى نعرفها ، والنساء غير النساء ، والرجال غير الرجال ، وهلم جرا

وسمعنا فى الصباح أجراساً تدق دقات عالية متوالية ، فحسبنا قافلة كبيرة عندهم تهم بالسير ، ثم قيل لنا إن هذه الأجراس عندهم بديل من الأذان فى مساجدنا ، وذكرنا إسماعيل بك بأن مثل هذه المعابد ذات الأجراس موجود فى قرى البلاد الأرمنية

وبعد وقوف السفينة على الشاطئ تبودلت التحيات بينها وبين إحدى قلاع المدينة باطلاق المدافع ، ثم قيل لنا إنه غير مسموح بالنزول إلى المدينة لأن البلاد التى نحن آتون منها بلاد غير نظيفة . فأخذتنا العزة وقلنا لهم إننا آتون من بلاد إسلامية وإننا لا نسمح بوصفنا بهذا الوصف . فأجابنا الربان جواباً لم نفهمه أيضاً إذ قال إن عدم النظافة هو المرض وإن فى الهواء ببلاد الترك حيوانات صغيرة جداً تجعل من يستنشق هذا الهواء غير نظيف . فلم يقنعنا هذا التعليل غير المعقول وطلبنا إعادتنا إلى فارس احتجاجاً على هذه الاهانة أو السفر بنا فى الحال إلى بلاد الفرنجستان

لكن السفير عاد فقال : « إننى مع استيائى من هؤلاء الانكليز أرى أن عوائدهم بعيدة جداً عن عوائدنا وعقلهم ليس كعقلنا فينبغي أن نعذرهم وينبغى كذلك أن ننفذ أوامر الشاه كما هى . وقال لنا ليرضينا إن ترجمة مايقوله الفرنجستان عن الحيوانات الهوائية أن فى بلاد الترك عدوى الطاعون

وأنهم يخشون أن تنتقل العدوى إليهم . وقال إنهم لكفرهم لا يسلمون الأمر لله ويعتقدون بوجود العدوى .

وقال لنا المترجم إن المرضى بالأمراض المعدية فى داخلية البلاد يحجزون فى أماكن أحصن من السجون ، وإن الذى يحاول الفرار من بينهم قد يرمي بالرصاص كما يفعل بالأسير الهارب . ومن هذا القول فهمنا أنهم يعاملون المرضى مثل معاملة المجرمين وليس هذا أول شيء غريب بدا لنا من جانب الأوربيين

لكننا عولنا على الرضى فيجب علينا نحن أن نؤمن به فلا نحارب القضاء الذى شاء تأخيرنا أربعين يوماً فى الحاجر

وفى فترة التأخير زرنا السفينة الكبيرة التى تحرسنا فراعنا كبر حجمها ومدافعها وكثرة هذه المدافع؛ واعتقدنا أن إخواننا الفارسيين لن يصدقونا عندما نقول لهم إن بالبحر سفناً بهذا الحجم وهذه المناعة . وقلنا مادام هذا هو استعدادهم الحربى فلا غرابة إذن فى امتلاكهم الهند . ولم نكد نصدق — وهذا هو وصفهم — أنهم يخضعون لحكم سيدة ويعترفون بها ملكة عليهم .

وكان بجوار السفينة سفن أخرى كثيرة محجوزة لأنها غير نظيفة . ولاحظنا اهتماماً فى تلك السفن بسفينتنا، فقد كان كل من فيها يحاول النظر إلينا ؛ فلما سألنا عرفنا أنهم علموا أن بيننا سيدة شرقية بثيابها الوطنية فأرادوا أن يروها وهى بتلك الثياب . ويظهر أن القوم يعدون ثياب نسائنا من الأعاجيب .

وكانت الشمس طول هذا الوقت لم تنتقل من الركن الذى أجلست به عند صعودنا إلى السفينة ولم تنطق بحرف مدة السفر إلا عندما وقفت السفينة فى مالطة فعند ذلك سألت عن علة الوقوف .

وفى أثناء هذه المدة زارنا حاكم المدينة وحيا السفير . وأشار إلى العلم الأصفر الذى يرفرف على المحجر وأبدى علائم الاعتذار ، وأفهمنا المترجم أنه يعرب عن أسفه لاضطراره إلى حجز السفينة وأنه لولا ذلك لسُرَّ من زيارتنا إياه ولأرانا المدينة وما فيها من المعاهد والآثار

وقال لنا إن نظام المحاجر لا يمكن التساهل فيه، وإنه لو كان الملك نفسه آتياً من بلاد ملوثة لما استطاع مخالفة نظام المحاجر . وقال إن وصف البلاد المصابة بالعدوى بأنها غير نظيفة لا يمس أهلها وأن الملائكة أنفسهم يعتبرون ملوثين إذا جاءوا من بلاد بها عدوى

ثم ختم الحاكم كلامه بالسؤال عن الأحوال فى فارس وعن صحة الشاه — وما إلى ذلك من الأسئلة . وقد رأى فيروز خان أن اللياقة تقضى بأن يرد على هذه الخطبة بخطبة مثلها فأكد للحاكم أن الشاه يتمتع بالسعادة الكاملة وأن جنوده جاءوا إلى قصره فى السلطانية بعشرين جملاً محملة برؤوس العصاة والمتمردين من خراسان ومازندران، وأنه خرب قرى الثوار وقضى عليهم القضاء الأخير . والفضل فى الانتصار لخمسة وعشرين أميراً من أبناء الشاه قادوا جيشه فى هذه الحملة . وقال إنه يرجو أن يسر الحاكم بهذه الأخبار لما بين الدولتين من الود

ولكن ظهر لنا من مراقبة وجه الحاكم عند سماع هذه الخطبة أن دهشته لم تكن أقل من دهشتنا نحن من خطبته . وقد قال لنا المترجم إن الحاكم

مسرور من انتصار الشاه . وأخبرنا أن فى بلاده ما يسميه بالحرب الانتخابية وأن تأخيرنا فى المحجر كان فى مصلحتنا لأننا لو وصلنا إلى انكلترا قبل انتهاء هذه الحرب لما سررنا من الحالة هناك . وقال إنه يأمل أن يبشرنا قريباً بانتصار الشاه الإنكليزى على خصومه الذى سماهم الحاكم « بالمعارضة »

وقد أراد المترجم أن يشرح لنا معنى المعارضة فذكر أشياء لم نفهمها مثل قوله «الضمانات الدستورية والحقوق البرلمانية » وما إلى ذلك من ألفاظ لا معنى لها فى لغتنا، وكل الذى فهمناه أن هناك شغباً فى البلاد وأن الحكومة قد لا يكون مركزها وطيداً ، وأن أعضاء سفارة مثلنا لا يكون وصولهم ملائماً إلا عند وجود حالة مستقرة

ولكننا لم نفهم معنى قول الحاكم إن المعارضة تنهزم كل يوم ولكن أعضاءها لا يتفرقون ولا يقتلون . ولا أعرف كيف إذن يكون انهزامهم

والأعجب من ذلك أن المكان الذي تدور فيه المعارك مكان واحد لا يتغير ، اسمه (البرلمان) ويظهر أنه ميدان حرب

ولكن الحاكم استنكر أن تسيل الدماء بهذا الميدان .

وقال محمد بك يظهر أن الفرنجستان على غرابة أطوارهم لا يعرفون معنى للحكومة القوية فهم لذلك يتركون خصوم الشاه على قيد الحياة

ونظر الحاكم إلى سفيرنا وقال : « إنك بلا ريب ستعلمهم أنظمة الحكم الصالح فتساعد الشاه الفرنجستانى على التخلص من خصومه »

عند ذلك بدا السرور على وجه السفير الفارسى وفتل شاربيه وقال : « إننى على بركة الله سأعلمهم ما هم فى حاجة إلى تعلمه

ثم غادرنا الحاكم ونحن ننظر إليه مندهشين وهو مندهش منا أيضاً

الفصل الثانى عشر

السفينة الحربية

احتفل بنا قائد البارجة الحربية احتفالاً عظيماً عندما انتقلنا إلى سفينته . ومن عجائب هؤلاء القوم أنه قابلنا ورأسه مكشوف وقبعته فى يده. وقد أفهمنا المترجم أن هذه العادة عندهم دالة على الاحترام . ولم يكتف فى تحيتنا بالكلام بل أمر كذلك باطلاق المدافع .

وقد وجدنا عدد الجنود الذين فى هذه السفينة يكفى لتعمير مدينة من مدن الفرس . وكان فيها نساء قيل لنا إنهن يقمن ببعض الأعمال فى الحرب . ولا أعرف ما هي هذه الأعمال ولا أى شأن للنساء فى الحروب

وجىء لنا بالفواكه الشهية وبالأطعمة اللذيذة

وقال سفيرنا إنه لو كان عند الشاه سفينة واحدة مثل هذه لسحق روسيا سحقاً . وإن شاء الله متى وصلنا إلى انكلترا فاننا سنتعلم صناعة هذه السفن . ولن يكون ذلك صعباً علينا لأننا نحن الفارسيين لا نعجز عما يقدر عليه الأتراك ؛ ومادام الأتراك قد شادوا مثل هذه السفن وهم بشهادة العالم كله أضعف الناس ذكاء ، فاننا سنشيد أسطولاً بلا ريب

ثم عرفنا ربان السفينة الحربية بمساعديه ومن بينهم طبيب ، ومن بينهم أيضاً قسيس هو العلامة الوحيدة على تدين هؤلاء القوم الذين ينقضى النهار ووراءه الليل ولا نراهم يركعون ولا يسجدون

ولا يمتاز القسيس عنهم إلا بأن ثيابه سوداء . أما فيما عدا ذلك فهو يشبههم أتم الشبه ولحيته محلوقة وكذلك شارباه

وطبيبهم كذلك لا يلبس ثياباً تميزه ، ولكنه بغير ريب على جانب عظيم من العلم فانه لما جس نبضي ورأى لساني أشار لي بالدقة على مواضع الألم في رأسي . وقال لي إن في عينيّ ألماً وإنني قليل الشهية للطعام . ولقد صدق في كل ما قاله

ولما أعطاني الدواء وجدت ثمرته العاجلة وهو لا يكتب حجاباً ولا يستعين بعلم الفلك كميرزا أحمد الطبيب الفارسي

ثم نزلنا مع الربان إلى الطبقة السفلى من السفينة فوجدناها لا تنقص في الضوء ولا النظافة ولا حسن الترتيب عن الطبقة العليا . ووجدنا بها سيدة إنكليزية في نهاية الجمال . ولكن جمالها يخالف الجمال الذي نعرفه في بلادنا فإن شعرها أصفر مثل أسلاك الذهب ووجهها في استدارة القمر . ولم تحاول إخفاء وجهها عندما رأتنا . ولم يكن في يدها برقع ولا منديل تتقي به الأعين الناظرة لو هي أرادت ذلك . ولقد كلمتنا دون خفر ولا دلال كأنها رجل مثلنا . وأفهمنا المترجم أنها تسأل عن الشركسية فأجابها السفير أنها ليست إلا رقيقة وأنها لا ترجو أكثر من أن تترك في مكانها

وكان مع هذه السيدة سائح أبيض الشعر كثير التجارب لم نفهم الغرض من رحلاته إلا أنه يقول إنه يصيد الطيور والوحوش والأسماك . وهذا السبب الذي يزعمه لا يبرر إنفاقه النفقات الطائلة في الرحلات ، فلا بد أن يكون له غرض آخر يخفيه

وعندما وقع نظره علينا أخذ يصعد فينا نظره ويصوبه من الرؤوس إلى الأقدام كأننا مواشٍ يريد أن يشتريها . ولست أشك في أنه لو كان يستطيع امتلاكنا لفعل بنا ما يفعله بالحيوانات التي يصيدها ، فقد قال إنها تعرض في بلاده في حدائق عامة ليراها الناس

وكان معهما شاب قال لنا المترجم إنه « شاه زاده » أي ابن ملك من ملوك الفرنجستان في جزيرة تدعى صقلية ، ولكن ملك هذه الجزيرة وأمراءها قد طردوا منها ، فهم لذلك ينتقلون من بلد إلى بلد ويشتغل بعضهم بالتجارة والبعض لا عمل له . وقد اعتراني الدوار لما قلت في نفسي إن أبناء الشاه سيكونون كذلك جوابين في الآفاق إذا طردوا من بلادنا

وكان هذا الأمير متواضعاً لا يستطيع الانسان أن يعرف أنه أمير إذا لم يسمع عنه ذلك . وكان في صحبته أحد الوزراء

ومنذ ركبنا السفينة جعلت همي أن أتعلم اللغة الانكليزية فأخذت أسأل المترجم عن اسم كل شيء وكل مكان وأحفظ هذه الأسماء . وكذلك لاحظت أن السفير يحاول تعلم هذه اللغة بقدر الامكان . وكان في استطاعتنا أن ننطق ببعض كلمات انكليزية عندما قابلنا السيدة التي تقدم ذكرها في السفينة الحربية . فكانت تبتسم عندما ننطق بهذه الكلمات . وقد أدهشنا من أمرها أنها تحسن القراءة والكتابة وتفهم ما تقرأ كأي رجل من الرجال . ولكننا لم نعرف هل خطها بلغتها جميل أو غير جميل ، لأننا لا نعرف قواعد الخط الفرنجستاني . لكن الذي أستطيع أن أؤكده أن الخط الفرنجستاني قبيح في جملته لأن الخطوط عندهم كلها متشابهة ولأنهم يكتبون على عجل . ولم ألاحظ توقيعاً من

توقيعاتهم على شكل طغراء ، ولم أشاهد كذلك تركيباً جميلاً كالثلث عندنا ، وأغرب ما فى خطوطهم أنهم يكتبون من اليسار إلى اليمين . ويبتدىء الكتاب عندهم من آخره فى الجهة اليسرى .

وهذا الخلاف بيننا وبينهم ذكرنى بتقاليدهم البعيدة عن تقاليدنا في الطعام ، فإن آدابنا فى الأكل بسيطة خالية من التكلف . ولكن لا تسل عن مقدار دهشتنا عندما دعينا لتناول الطعام فى السفينة أول مرة .

رأينا على المائدة أنواعاً متعددة مما لا يصلح استعماله إلا فى الحروب : رأينا سكاكين من أحجام مختلفة وآلات تشبه السكاكين ، ولكن أطرافها كثيرة مدببة تدل هيئتها على أنها تستعمل فى السجون لقلع عيون المجرمين . ورأينا أصنافاً كثيرة من الأدوات على المائدة وعدداً جسيما من الأطباق

ولقد كانت السكاكين من الكثرة بحيث تكفى لتزيين جميع الأحزمة فى حاشية الشاه بدلا من الخناجر

وتوجد غير الشوك والسكاكين ملاعق كثيرة . وقد خطر ببالى أنه لابد من انقضاء زمن طويل فى تعلم طرق استعمال هذه الآلات لنقل الطعام بين الأطباق وبين الفم خصوصاً بالنسبة لأناس متقدمين فى السن مثلنا تعودوا منذ الطفولة أن ينقلوا طعامهم بأصابعهم إلى أفواههم دون احتياج إلى هذه الاسلحة الحادة

وقد أصر السفير على أن نسلك مسلكا يقلل من ضحك هؤلاء القوم علينا وسخريتهم بنا ، فأمرنا باعتياد عاداتهم . لكن أول تجاربه فى ذلك كاد يجر علينا خطراً مستطيراً ، وذلك لأنه ما كاد يمسك السكين ليقطع بها قطعة من اللحم حتى جرح أصابعه

وكنت فى أثناء الطعام أسهو فآخذ بأصابعى بعض القطع وأدسها فى فمى ثم أتنبه فأدور ببصرى لأعرف هل رآنى أحد وأنا أرتكب هذا الخطأ الذي يرونه لا يغتفر

ولاحظت أن لديهم آداباً فى الطعام تخالف آدابنا . منها أن أمام كل فرد على المائدة طبقاً خاصاً لا يجوز أن يأكل من طبق غيره ، وأنه ليس مسموحاً بالشرب من الزجاجة أو الآنية ولكن يسكب الانسان منها فى الكوب على قدر ما يريد . ولكل فرد كوب خاص به . وكذلك لا يجوز له استعمال الملعقة أو السكين أو الشوكة التى لغيره ولا أن يستعمل سكين الزبد فى قطع اللحم ولا سكين اللحم فى أخذ الزبد . وهم يعتبرون إمساك البطة أو الدجاجة بيد وقطعها باليد الاخرى جريمة شنيعة . ولهم طريقة خاصة فى قطعها بالشوكة وبسكين كبير . وليس من الآداب عندهم أن يقدم الانسان إلى جاره قطعة من اللحم . وبالجملة فقد رأيت متناقضات مدهشة لا يسعها هذا الكتاب وسأقصها على إخوانى متى عدت إلى إيران إن شاء الله

الفصل الثالث عشر

أعضاء السفارة يغادرونه ساخطين

أخيراً تحركت بنا السفينة من جزيرة الدراويش فرأينا البحر مملوءاً بسفن من أحجام مختلفة وكلها فى اتجاه واحد هو الذى نقصد إليه . وقد لاحظنا أنهم يستعينون بآلة كالتى نعرف بها القبلة يسمونها (البوصلة) وهم يقولون إنها تبين لهم الشرق والغرب حتى فى الليل .

وقد سمعنا أن كل السفن التى رأيناها محملة بالبضائع وأنها تقصد إلى بلاد الانكليز، فدهشنا وقال السفير للربان : « هل بلادكم مصابة بمجاعة أم الانكليز عاجزون عن صنع أى شىء لأنفسهم فهم دائماً فى حاجة إلى من يمونهم ؟ »

فأجابنا الربان بواسطة المترجم أن الانكليز ليسوا فى حاجة إلى كل هذه المتاجر ولكنهم تجار يقومون بين الدول بمهمة الوسيط ، وهم صناع فهم يأخذون الخامات من بعض البلاد ثم يردونها إليها مصنوعة ؛ فلم يقنعنا هذا القول وأصررنا على أن بلادهم فقيرة . فقال لنا : إن هذه المهمة التى نقوم بها هي أشرف المهمات ، وإن المجد أن تبلغ أية دولة مثل هذه الغاية . واستشهد على صحة قوله بأرقام كثيرة . وقرأ لى قصاصات من الورق لم أفهم منها شيئاً

وبعد أيام قضيناها فى البحر وصلنا إلى صخور وراءها سهول واسعة . وقال المترجم ان هذه الصخور هى جبل طارق وإن البلاد التى وراء هذه الصخور كانت مملوكة للمسلمين فى وقت من الأوقات . وإن اسم طارق الذى سميت به الصخور هو اسم لأحد قواد المسلمين ، وقص علينا المترجم قصة طارق هذا وتحدث عن بلاد الأندلس، فعزمت على كتابة هذه القصة ونشرها فى إيران لأدل قومي على عظمة التاريخ الإسلامى

ولما استأنفت السفينة السير وجدنا أحد البحارة وهو شاب يضع على رأسه أصباغاً خاصة ليجعل بياض شعره سواداً ، فعجبنا من طريقته لأننا لا نعرف فى بلادنا شيئاً من هذا القبيل غير الحناء . لكن الحناء لا تعيد الشعر إلى لونه الأسود بل تجعله محمراً . أما الأصباغ الأخرى مثل النيلة الزرقاء فما لا يجوز صبغ الشعر به

وقد قدم ذلك البحار جزءاً مما معه من الصبغة إلى السفير ليصبغ لحيته إذا أراد ، فشكره على ذلك وسأله عن اسمها ليشترى من انكلترا شيئاً منها ويبعث به هدية إلى الشاه

ولكن لحسن الحظ لم يتبع السفير مشورة البحار ولم يصبغ شعره ، وقد وجدنا شعر البحار فى اليوم التالى شديد الاحمرار بدل أن يصطبغ بالسواد ، ولما سألناه عن السبب قال : إن رطوبة البحر أثرت فى الصبغة فأفسدتها ، ولذلك جاء لونها كذلك . ورأيناه شديد الخجل لأن الشعر الأحمر شنعة فى بلاده

ثم بدت لنا الأرض عن بعد فهلل البحارة . وبدا عليهم الطرب . وعلمنا أن هذه الأرض هى انكلترا . ولما اقتربنا منها لم نجد ذلك الإشراق الذى يجده الإنسان وهو مقبل على مدينة فى فارس . بل رأينا كسفاً من الضباب كسواد الليل كشف عن مناظر غامضة لأبنية ومنائر . وأدركنا عند ذلك علة ما نعرفه عن قلق الانكليز فى بلادهم وميلهم إلى الاسفار ، لأن الانسان بطبيعته لا يحب أن يوجد إلا حيث توجد حرارة الشمس وضوؤها . وقد حاول المترجم أن يقنعنا بأسباب أخرى لميل الانكليز إلى الاسفار ، وبالمصالح التى تقتضى ذلك فى أنحاء ما يسميه بالامبراطورية . ولكننا وجدنا هذه الأقوال تافهة لا يراد بها إلا التنصل من وصف بلاده بأنها غير صالحة للسكنى . ولم نفهم كلمات غامضة كثيرة كقوله « العلاقات الأجنبية . والتوسع الاستعمارى » ولعله يعنى بذلك غارات الحدود . وقد

أفهمناه أن ذلك لا يستدعى المهاجرة وأنه يكفى أن ترسل الحكومة الانكليزية بعض قبائلها لنهب المحصولات فى الجهات المجاورة واختطاف الرقيق والغنم والماشية

ولما أفهمنا المترجم الانكليزى ذلك أصر على عناده وأبى أن يفهم وأصر على أن النظم فى بلاده خير نظم فى سائر الوجود وعلى أنه ليس أحسن من حكومته وشاهه وقال : « انتظروا حتى تصلوا إليها فتروا بأعينكم ما لا تستطيعون إدراكه بالسماع ، وسترون هل فارس أكبر أم انكلترا ؟ »

الفصل الرابع عشر

أعضاء البعثة فى بلاد بموت

رست بنا السفينة أخيراً على الشاطىء . ولطول المدة التى قضيناها بالبحر لم يفكر أحدنا فيما اعتدناه من قبل من استشارة المنجمين . ولم يخطر ببالنا هل الساعة ميمونة أو غير ميمونة بل تأهبنا للنزول فى الحال . وقد أطلقت المدافع عند نزولنا ورفعت الأعلام . ولكننا لم نجد أحداً من قبل الحكومة فى انتظارنا فامتعض السفير فيروزخان

ولما أبدى هذه الملاحظة للمترجم قال إن العاصمة لا تزال بعيدة عن هذه المدينة بعد طهران عن اصفهان ، وقال إن المدينة التى نحن فيها هى بلاد موت

كان يوم نزولنا من السفينة يوماً سعيداً لأننا والحق يقال لم نطمئن يوماً على أنفسنا قط ونحن فى البحر . وقبل نزولنا كلفنا أتباعنا بجمع أمتعتنا . وأعانهم البحارة على ذلك وحمل كل منا سلاحه فوضعه فى حزامه وحمل ذوو الرماح منا رماحهم وودعنا البحارة ورؤساءهم ومشينا فى المرفأ كأننا فصيلة من الجيش . ولكن الانكليز قابلونا بالابتسام الذى مظهره الترحاب وحسن النية وإن لم يخف علينا أنهم كانوا يضحكون منا

وكانت الشركسية تمشى وراء موكبنا بين « سعيد » و « محبوب » وقد استلفت أنظار الانكليز نساء ورجالاً فاحتشدوا حولنا أينما سرنا . والعجيب أنهم لم يلتفتوا مثل هذا الالتفات إلى السيدة الجميلة التى كانت معنا فى السفينة ، فاهتمامهم فى الحقيقة لم يكن بالمرأة من حيث أنها امرأة ، بل من حيث أنها محجوبة . ولاحظنا أن نظراتهم لنسائهم السافرات كانت نظرات عفيفة . ولقد ذكرت عندما خطرت ببالى هذه الحقيقة قول شاعرنا السعدى « إن الفاكهة الممنوعة هى أشهى الفواكه إلينا وأحبها » وقلت فى نفسى إن الشاه فى فارس يرسل المنادين فى الطرقات قبل نزول زوجته من قصره إلى مكان آخر منذرين باخلاء الطريق ممن فيه ويقتل من يعصى الأمر . وذكرت أنه بالرغم من ذلك فانه لا يكاد يوجد رجل واحد من أهل طهران لم ينظر وجه الملكة خلسة من ثقب النافذة . ولكن هنا فى بلاد الفربجستان تمشى ملكة الانكليز فلا ينظر إليها أحد غير النظرة العادية التى ينظرها الرجل إلى الرجل

ومما استلفت نظرى فى هذه المدينة عظم المبانى وكثرتها وحسن زينتها . ولقد قدرنا أن كثرة المارين فى الطريق سببها رغبة الناس فى مشاهدة سفير الشاه ملك الملوك إلى الملك الانكليزى . ولكن ساءنا أنه لم يتقدمنا فراش من قبل حاكم المدينة يطرد الناس من أمامنا كما فعلنا نحن عند ما وصل إلينا السفير الانكليزى . وأقول إنه لو كان بعض

الفارسيين ضحكوا من ثياب ذلك السفير يوم قدومه كما يضحك الآن بعض الانكليز من ثيابنا لأعدمهم الشاه إرضاء لضيفه أو لجلدهم إن رأى الضيف الاكتفاء بذلك

ولما خرجنا من المرفأ أعدلنا المترجم عربات لا تشبه العربات التي رأيناها في الآستانة لأنها كبيرة الحجم مريحة حسنة المنظر وفضلاً عن ذلك فلا تجرها الخيل بل يظهر أن بها آلات كالتي بداخل السفينة تساعدها على الحركة . وقادتنا هذه العربات إلى مكان قال عنه المترجم إنه خان . ولكننا لما رأيناه وجدناه أفخم من قصر الشاه

دخلنا فكان أول ما رأيناه عند الباب ردهة كالتي في قصر الملك بها مرآة عظيمة وآلة توضع عليها القبعات، ووجدنا سيدتين جميلتين على مكتبين مزخرفين وليس على وجهيهما براقع . ووجدنا رجلاً في ثياب أنيقة في استقبالنا فمررنا بغرف مقفلة لم نر أبواباً أجمل من أبوابها، ثم أرانا جناحاً به عدة غرف مخصصة لنا . وقال لنا المترجم إنه غير مسموح لنا بأن نصفق أو ننادي بهذا المكان . وأرانا ثقباً بالحائط فيه زر صغير قال إننا إذا لمسناه سمع البواب دقة الجرس بالقرب منه فيأتي . وفعلنا ذلك على سبيل التجربة

فلما تبينا صدق قوله تذكرنا القصص التي تقال عن بلاد الجن . وكان كل شيء أمامنا يبهر النظر حقاً فإننا في قصر لم يقم في مثله أي ملك من ملوك الفرس من عهد أنو شروان . ولا يرى الفارسي ولا في الحلم مثل الذي به من أسباب الراحة

ولما استرحنا قليلاً في غرفة الاستقبال جاءت فتاة انكليزية ساحرة الجمال وقالت لنا بواسطة المترجم إن أماكن النوم قد أعدت لنا ، فذهبنا اتراها ، ووجدنا لكل واحد منا غرفة خاصة . ولست أستطيع وصف الأسرّة فإنها لجمالها لا تكاد تختلف شيئاً عن عرش « الطاووس » الذي يجلس عليه الشاه في الأعياد . وقال لنا المترجم إن السرير الذي أعد للسفير قد اختير عن عمد من الأسرة المصنوعة على الطراز المغولي المعروف بعرش الطاووس

قال السفير : « لا إله إلا الله ! إن الحظ لم يكتف بإرسالنا إلى الفردوس حتى يجعل الحور في خدمتنا ! »

ثم حدثت حركة غير عادية في الفندق عند ما علم القيمون به بوصول الشركسية فقد كان كل منهم شديد الحرص على أن يراها . ويظهر أنه لم يعتقد أحد منهم أنها ليست إلا جارية . ولذلك حيّاها الجميع كتحيتهم للسفير نفسه . حتى مترجمنا الانكليزي صار كأبناء جنسه يؤدي لها من الاحترام ما ليس من حقها وصار يطلق عليها كلمة « اللادي » ولما سألناه عن معناها عرفنا أنها تعني كلمة « الهانم » فاستاء السفير من هذا التعبير وطلب إليه ألا يعيده لأنه يعلم أنها جارية

ولقد كانت دهشة الانكليز عند رؤيتها أشد من دهشتهم عند رؤيتنا نحن حتى كان القيمون بالأبنية التي أمام الفندق ينظرون من النوافذ لعلهم يبصرونها . وكانوا يتحدثون بأصوات عالية لم نفهم منها شيئاً ولكن أحاديثهم بغير شك كانت عنا وعنها

وقال السفير : « إذا كان الجواري يعاملن هذه المعاملة في انكلترا فكيف تعامل الزوجات ؟ لا غرابة إذن مع احترامهم للنساء أن يستنكفوا خروج الخصي مع إحدى الزوجات ليحرسها »

الفصل الخامس عشر

حاكم المدينة يزور السفير

كان « ميرزا فيروز » شديد الغيظ لأن أحداً من رجال الحكومة لم يأت ليزوره ، وقد كان ذلك أقل واجب له بعد أن أهملوا حفلة استقباله مع أنه يوم وصول السفير الإنكليزى إلى طهران أقيمت حفلة لأجله لا يقام مثلها إلا للملوك

ولم يخف السفير شيئاً من غيظه عن المترجم بل قال له فى صراحة : إنه آسف لمجيئه هذه البلاد التى لم يكن ينتظر أن يعامل فيها مثل هذه المعاملة وأنه مع اقتناعه باختلاف العادات فإنه يأبى أن يصدق أن إهمال الحفاوة بتاتاً من العادات الانكليزية

لكنه لم تطل إقامتنا بالفندق حتى أخبرنا المترجم بأن حاكم المدينة آتٍ لمقابلتنا . ولقد جاء وحده لا يصحبه أحد من رجال حاشيته ولا يتقدمه الفرسان ولا حملة المشاعل ولا حامل « الشوبك » ولا الفراشون ليطردوا الناس من الطريق . بل كان هذا الحاكم فى نهاية البساطة يحمل عصاه فى يد وقبعته فى اليد الأخرى

وبعد أن حيانا جلس على أقرب مقعد أمامه ، فدهش السفير من ذلك كل الدهشة لأن رجلاً كبير المقام لابد أن يجلس فى صدر المكان . ولولا أن المترجم قال لنا إن هذا هو الحاكم لاستحال علينا أن نعتقد ذلك . وزادت دهشتنا عندما علمنا أنه صاحب سفن كثيرة وأنه بطل من أبطال الحروب وأنه لا يزال محتفظاً بقوته بالرغم من أنه تجاوز السبعين .

ورأى سفيرنا — ما دام هذا هو أول حاكم انكليزى نقابله — أن يكون الأثر الذى نتركه فى نفسه جميلاً بقدر الامكان . وبذلك استجمع كل ملكاته الخطابية ليلقى أمامه أبدع ما يمكن أن يقال

وبعد أن سأله ثلاث مرات عن صحته وحالته ، وقف وطلب إلى المترجم أن ينقل أقواله إلى الانكليزية . وألقى الكلمة التالية :

« الحمد لله إذ رأينا فيك يا حاكم المدينة رجلاً غض الشباب موفور الصحة قادراً على القتال ممتعاً ، فضلاً عن مزاياك النفسية العالية بصفات تحبب فى الاقتراب منك ، فالعين لا تنصرف منك إلا إليك لجمال طلعتك ، ونحن سعداء بالوجود في حضرتك . وإن من حسن الطالع أن نتعرف بك فان رؤيتنا إياك دلتنا على أن ملك الانكليز أحسن الملوك رأياً فى اختيار الحكام ، وأن ملكاً حوله أعوان من أمثالك لجدير بصداقة فارس »

كنا ننتظر أن يرد على الخطبة بخطبة مثلها يبالغ فيها فى مدحنا . ولكنه وجم كأنه لا يستطيع الكلام . وبدت على وجهه علائم الحيرة كأنه يستنكر مدحنا إياه بما يعرف أننا لا نصدقه وإن كنا نقوله

وقد بقى السفير عدة دقائق ينتظر الرد . فلما لم يسمعه أخذ يفتل شاربيه ويدخل أصابعه فى لحيته . وأخيراً فطن الحاكم الانكليزى إلى أن السكوت لا يليق فقال : إن الجو جميل

رضى السفير بعض الرضى لأنه فهم أن الحاكم يريد أن يقول إن الجو جميل بوجودنا كما نقول نحن فى فارس إن الشمس مشرقة بوجود الضيف . ونظر كل منا إلى الآخرين

ولما انصرف الحاكم قال لنا السفير : هل

رأيتم حماراً مثل هذا ؟ إن أحد السوقة فى فارس أذكى من هذا الحاكم الانكليزى وأفصح منه لساناً . فأخذنا نطرى فصاحة سفيرنا وذلاقة لسانه وسرعة خاطره ، وقلنا إنه بيض وجوهنا ووجه الشاه الذى أحسن اختيار من يمثله فى البلاد الأجنبية . واتفقت كلمتنا على أنه ليس فى العالم كله حاكم أشد عجزاً من حاكم بلايموث

كان العشاء فى الفندق على منوال العشاء فى السفينة سوى أن الأطباق والملاعق والشوك والسكاكين كانت كلها من الفضة . فسألنا المترجم هل هذا هو منوال الحياة العادية فى الفندق أم زيد فى الاستعداد حفاوة بنا . وقلنا له إن الفنادق عندنا لا تقدم الطعام للنزلاء بها بل بجوار كل خان بدال يأخذ منه النزيل ماشاء من طعامه . على أن الطعام الذى قدم لنا هنا جدير بأن ينسى المرء ما يقال عن كرم حاتم

أكد لنا المترجم أن هذا هو منوال الحياة العادية بالفنادق وأنهم لا يقدمون لنا الطعام كرماً فهم بعداء عما نفهمه من معنى الكرم، وأن أصحاب الفندق سيقدمون لنا عند ما نرحل عنهم قائمة بالحساب يدرج فيها ثمن كل شىء مهما كان تافهاً . وأننا إذا كسرنا لوحاً من الزجاج أو كأساً فانهم يحتسبون ثمنه علينا . وقال لنا أكثر من ذلك إنهم لا يقبلون المجادلة فى الأثمان التى يذكرونها بقوائم حسابهم ولا يصل الأمر إلى القاضى ليفصل فى النزاع على الأثمان فان كلمة أصحاب الخان مصدقة ، وأن الذى يرفض دفع ثمن ما يأكله أو أجر إقامته تصادر أمتعته ، وقد يسجن أيضاً

ولما حان وقت النوم وجد كل منا فى غرفة نومه موقداً ، ووجدنا الفراش سخناً فكدنا ننسى أننا ببلاد شديدة البرد. ولما انقضت ساعات من الليل فزعنا عند ما سمعنا صوت السفير يصيح فخرجنا لنعرف حقيقة الأمر فوجدناه فى ثياب النوم يمشى وفى يده شمعة فى الممر الذى بين الغرف وهو يلعن الفندق وأصحابه ، وجاء أصحاب الفندق وخدمه والنائمون فى الغرف الأخرى وفيهم سيدات ليروا ما ذا أصاب سفيرنا فقال جملا بعض كلماتها فارسى والبعض انكليزى معناها أنه كاد أن يموت وأنه يظن أن أصحاب الفندق يريدون قتله بشدة الحرارة التى فى غرفته

وقد تبين من جواب أصحاب الفندق أنهم عرفوا أن نزيلهم آت من بلاد حارة فأدفؤا الفراش وزادوا من حرارة المدفأة على أن يقللها هو إلى الحد الذى يريده قبل أن ينام

ولما منعنا السبب الذى يتأذى منه السفير عاد كل منا إلى غرفته وهو يفكر فى غرابة أطوار الانكليز الذين يختلط نساؤهم برجالهم حتى وهم فى ثياب النوم والذين ليست لديهم أية فكرة عما نسميه نحن بأماكن الحريم . وقد وجدنا نساءهم بالليل أقل جمالاً منهن بالنهار لأن كل واحدة منهن تضع على جبينها وخديها قطعاً صغيرة من الورق لعلها أحجبة يقصد بها إلى الوقاية من الحسد والسحر

ولقد أتعبتنا فى هذا الفندق صعوبة الحصول على الماء لأننا لا نستطيع أن نأمر الخادم باحضار ما نشاء من الماء إلى غرفة النوم للوضوء أو إلى غرفة الطعام لغسل أيدينا بل علينا أن ننتقل نحن إلى مكان الماء . ويظهر أن الماء عندهم قليل لأنهم يجعلونه فى أنابيب دقيقة بالحوائط ويفرغون منه بمقادير قليلة . وقد

حاول السائس مرة أن يأخذ مقداراً من الماء الساخن في حمام الفندق ليغسل الخيل في الاصطبل فضج أصحاب الفندق . أما فيما عدا ذلك فان فندقهم أفخم من قصور الشاه

ولكي أقرر الحقيقة يجب أن أعترف بأننا بالقياس لهم أناس في نهاية السذاجة

الفصل السادس عشر

في الطريق الى لندن

طلب إلينا المترجم أن نستعد للسفر إلى لندن ، وقد امتعض السفير من ذلك لأنه كان يتوقع أن ترسل الحكومة إلينا مندوبين يرافقوننا إلى تلك العاصمة ، وكان يظن أن تأخرها عن ذلك إلى الآن إنما يرجع إلى رغبة الوزراء الانكليز في جمع الهدايا كما حدث عندما جاء السفير الانكليزي إلى طهران

وكذلك حمل تأخرهم على أنهم يصنعون عدداً كبيراً من الرايات الفارسية ليرفعوها على طول الطريق وعرضه بين بلايموث وبين لندن

لكن المترجم قضى على كل هذه الآمال بتحديده ساعة السفر في صباح اليوم التالي. وقال إننا سنسافر في عربات عمومية تنقلنا وتنقل غيرنا ، وأن السائق لن ينتظرنا إذا طلبنا إليه الانتظار ، فيجب أن نكون متأهبين في اللحظة المحددة للسفر . وقال إن كل شيء في انكلترا بمواعيد معينة ، وإن أي عمل من الأعمال لا يتعطل بسبب التأخير ولو كان هذا التأخير صادراً من الشاه الانكليزي نفسه

ووجدنا المترجم صادقاً فيما يقول لأن العربات ما كادت تقف على باب الخان حتى نفخ السائقون في الأبواق ، فبدأنا نمشط ذقوننا وهمّ أحدنا بأن يصلي ركعتين فنفخوا في الأبواق مرة أخرى . وأنذرنا المترجم بأننا لو تأخرنا دقيقة واحدة فإن العربات تتركنا وتسير

قلت : « لماذا هذا التعجل ؟ إن الشمس ليست حارة هنا مثل بلادنا حتى يكون لكم عذر في التبكير قبل أن تشتد الحرارة »

فقال المترجم : « نحن لا تهمنا الحرارة والبرودة ولكننا نزن الزمن بأدق الموازين ولا يفرط أحدنا في لحظة من عمره »

وقال محمد بك : « وهل من التفريط في العمر أن نصلي ركعتين ؟ » فقال المترجم : « قد لا يكون ذلك من التفريط في عمرك ولكن لماذا تترك السائق في انتظارك ؟ صلّ ألف ركعة إذا شئت واترك السائق وعربته ؟ »

عند ذلك سمعنا الأبواق تنفخ مرة أخرى وصاح السفير بنا أن نسرع ، ولعنا ولعن الساعة التي رافقناه فيها ، فتبعناه إلى الطريق

ركبت أنا والسفير والمترجم في عربة ، وسعيد ومحبوب والشركسية في عربة أخرى، وسائر أعضاء السفارة في عربة ثالثة ، وكان في كل عربة من هذه العربات مسافرون آخرون

وكان بجانبي فتاة إنكليزية سافرة الوجه لم تتحرج من ملامسة جسمي لجسمها مع اختلاف ديننا كما نتحرج نحن من ملامسة اليهود . ويظهر أن من صفات الانكليز أنهم لا يعرفون الطهارة والنجاسة في الآدميين فهم يمسكون بيد اليهودي ثم لا يرون ضرورة للاستحمام كأنهم يمسكون بيد واحد من أنفسهم . على أن هذا في الحقيقة لا يدعو إلى الدهشة ما دام القوم يأكلون لحم الخنزير

وإذا كنا نمتاز عن الانكليز فى كل شىء فانهم بغير ريب يمتازون عنا فى صنع هذه العربات لأن « التختروان » عندنا وهو « هودج » يحمل بين فرسين لا يمكن أن يكون كالعربة ، فهو دائماً يرتج ويهتز بعكس العربة التى يمكن أن يشرب فيها المرء فنجاناً من القهوة دون أن تسقط قطرة منه على ثيابه. بل يستطيع أن يقف فيها ويصلى ويستطيع أن يدخن فى النرجيلة وأن يتناول الغداء وقد فكرت فى إدخال صناعة العربات بالبلاد الفارسية عندما أعود إليها

وقد عجبت من نظافة الشوارع ، فليس بها قطع من الأحجار ولا أكوام من الأقذار وهى مغسولة كأن الجن قاموا بتنظيفها فى الليل ، ومثل هذه النظافة لا تكون فى بلادنا إلا فى الطريق الذى يسلكه الشاه فى يوم الجمعة للصلاة . وأخذ بعضنا يسائل البعض هل أعد ذلك خصيصاً لنا ، فأخبرنا المترجم بأن هذه هي حالة الشوارع كل يوم

وقد صدقناه لأننا لم نر علامة على الاحتفاء بنا ، فالناس هنا ينظرون إليه ويضحكون منه مع أن الفارسيين كانوا يأمر الشاه يركعون عند رؤية السفير الانكليزى

استرحنا فى أثناء الطريق بخان لنتناول فيه الغداء ، وقد دهشنا إذ أخبرنا المترجم بأن المسافة التى قطعناها هى ثلاثون فرسخاً وهى مسافة نقطعها فى فارس فى أربعة أيام . ولكن سرعة العربات البخارية فى انجلترا لا يكاد يتصورها عقل الفارسى فى بلاده

ووجدنا السوق فى القرية التى تغدينا بها خالياً من المحتسب ، والمشترون على أتم اتفاق مع البائعين

الفصل السابع عشر

مدينة الحمام

استأنفنا السير فوصلنا إلى مدينة (باث) ومعنى هذه الكلمة باللغة الإنكليزية هو (الحمّام) فاسم المدينة إذن هو مدينة الحمام لأن بها حمامات كثيرة ليست تشبه حمامات الماء الساخن عندنا ولكنها آتية من ينابيع يقولون إنها معدنية . وهم يقولون إنها تشفى من الأمراض مثل مياه بروسه بالقرب من الآستانة . وكان السفير يشكو وجعاً فى الظهر فأشاروا عليه بالاستحمام فى هذا الماء ؛ فلما قبل قادونا إلى بحيرة ينزل فى مائها الرجال والنساء معاً .

ولقد كانت مشاهدة الحمامات الانكليزية سبباً فى إثارة المناقشة بين السفير وبين المترجم فى موضوع النظافة والطهارة عند الفارسيين وعند الانكليز. فالفريق الأخير لا يعرف الطاهر والنجس ولكنه يعرف النظيف والقذر . فالخمر عند الانكليز طاهرة لانها نظيفة ، والماء لا يكون عندهم طاهراً إذا لم يكن نظيفاً . وقد غضب السفير فى نهاية هذا الحديث وقال : « أنتم قوم لا يحق لكم التكلم عن النظافة مادمتم تأكلون لحم الخنزير ، وكل الحمامات التى فى العالم لن تطهركم من نجاسته »

فقال المترجم « لا تكثر من الكلام فى هذا الموضوع فانك ستأكل من لحم الخنزير قبل أن تغادر هذه البلاد ، ولن يكون فى وسعك أن تميز بينه وبين اللحوم الأخرى »

وبعد الاستحمام بهذه المدينة استأنفنا السفر إلى العاصمة وقد وجدنا عند بابها عربتين من عربات الشاه الإنكليزى فى انتظارنا كما وجدنا اثنين من

موظفي قصره ، فركبنا إلى المكان الذي خصص للسفارة

وقد سرّ السفير من إرسال هذين المندوبين وانتظر إجراء حفلة استقباله في صباح الغد . ولذلك أعدّ ملابس الحفلة والخنجر ذا المقبض المرصع بالجواهر ليضعه في حزامه والقلبق الذي عليه الريشة المجوهرة

وقد لاحظت أن الإنكليزيات لم ينفرن من النظر إلى عيوننا السوداء ووجوهنا المستديرة ، ولذلك حرصت على نظافة ثيابي وجمال منظري ، وارتديت « الطقم » وهو أجمل ثوب عندي ومشطت شعري وجمدت خصلة طويلة منه وراء أذني وهذه الخصلة يسمونها بالسالفة في فارس ، وهي من لوازم الأناقة ...

حلق لنا « فريدون » وساوى ذقوننا ، وجيء للشركسية بثوب جديد من ثياب الفرنجستانيين ولكن تفصيله على الطراز الفارسي

وأفهمنا المترجم أننا سنتبع في الاستقبال عادات بلادنا فنمشي على مهل شديد ونلقي خطباً طويلة كثيرة وأنه سيقدمنا في الطريق بعض الأتباع ليطردوا الناس من أمامنا ، وطلبنا إليه إفهام السلطات الإنكليزية ذلك

ومما رأينا في لندن ولم نكن نتوقعه أن على حوانيتها « لوحات » كثيرة لا شك أنها من مأثور القول عندهم . وعزمت عند ما أتعلم اللغة الإنكليزية على استظهار هذه الأقوال لكي أتمثل بها في كلامي

ولكن المترجم قال لي فيما بعد إن هذه ليست أقوالاً حكيمة وإنها عنوانات للحوانيت التي هي معلقة عليها . فعجبت من ذلك وقلت إنهم لم يعلقوها على كل حال إلا مباهاة بحسن خطها وإلا فأية فائدة من تعليق العنوان ؟

وأدهشتنا من هذه المدينة كثرة المارة في شوارعها فانها في أيامها العادية أشد زحاماً من الأسواق عندنا في أيام المواسم . ولولا ما شهدناه من قلة اهتمام الناس بنا لقلنا إن أهل المدينة خرجوا لاستقبالنا كما خرج كل أهل طهران ليروا السفير الانكليزي يوم وصوله . قال السفير للمترجم : إني لقلة ما أرى من مظاهر الحفاوة لا أكاد أصدق أنني سفير من حقه الاكرام فانكم تدخلون بي البلد خفية كأنني بضاعة مهربة . فنقل المترجم هذه الملاحظة إلى الموظفين الانكليزيين فلم يفهما في بادئ الأمر ماالذي يريده السفير لجهلهما بعوائد الفارسيين ؛ فلما أفهمهما المترجم قالا إن هذه هي عوائد البلاد وإن السفير الفارسي يقابل كأي سفير آخر

قال فيروزخان : « إذا كانت هذه هي عوائدكم فأقسم إنها عوائد سيئة فإنه لا فرق عندكم بين استقبال سفير وبين استقبال امرأة عجوز . ثم نظر إليّ وقال : « أقسم يا حاجي بابا أنني لو كنت أتوقع ذلك لما قبلت أن أكون سفيراً . لقد كان حلق لحيتي أهون عليّ من مغادرة بلادي والعيشة بين الكفار . ولا بدّ لي من الانتقام من رئيس الوزارة الذي بعث بي إلى هذه البلاد حيث لا تقام حفلة الاستقبال . وإذا لم أنتقم منه فاني غير جدير إذن باسم فيروزخان

وجم الموظفان الانكليزيان وقد أزعجتهما هذه اللهجة التي يتكلم بها السفير . وفي أثناء مرورنا بالعربة أشار أحدهما إلى حديقة وقال إن هذه الحديقة إحدى متنزهاتنا العامة . فقال السفير بلهجة دالة

على الفضب : « أغلقوا النافذة فانى لا أريد أن يرانا أحد فيزداد افتضاحنا »

فلم يسع الانكليز غير الصمت

الفصل الثامن عشر

دار السفارة

نزل السفير إلى الدار المخصصة للسفارة فلم يقدم إليه أحد هدية ولم يرحب به أحد . فعلت وجهه مسحة من اليأس . وقال إن الشاه أمره بان يبيض وجهه فى هذه البلاد ، ولكنه سود وجهه ووجه الفارسيين جميعاً . وقدم له المترجم طعاماً فأبى أن يأكله ، وقال إنه لن يأكل الخبز والملح مع الانكليز حتى يأتى مندوب من قبل الشاه الانكليزى ليقول له الحمد لله على سلامتك

قال المترجم : « ولكن ألا تريد أن تعتبر لمجىء المندوبين الانكليزيين أية قيمة ؟ فقال السفير : « لا تقل لى ذلك فأنت نفسك حضرت حفلة استقبال السفير الانكليزى فى طهران . إنكم سودتم وجهى وسودتم وجه حكومتكم أيضاً والحمد لله على ذلك »

ولما رأيناه على هذه الحال تركناه . واستأذن المترجم الانكليزى كذلك فى الذهاب . وكان المترجم فى الأيام الأخيرة يتغيّب عنا أحياناً ليرافق رجلاً جميل الثياب ظاهر الوجاهة كان يقيم أمامنا . وقال لنا الطباخ إنه جاء مرة مع المترجم الى دارنا . وكان الطباخ مريضاً فوصف له دواء شفاه فى الحال

اعتقدنا من ذلك أنه طبيب . وفى عصر ذلك اليوم عاد إلينا مع المترجم فخرجنا إليه مادين أيدينا ليجس نبضنا مخرجين ألسنتنا ليرى لونها ، فلما رآنا المترجم كذلك استغرق فى الضحك وسألنا لماذا نفعل ذلك ؟ فقلت لأن صاحبه طبيب ، وقال الطباخ نعم وقد شفانى

قال المترجم إنه ليس طبيباً ولكنه عمى . فقلت ما معنى ذلك ؟ هل هناك ما يمنع الجمع بين كونه طبيباً وبين كونه عمك

قال : « هو على كل حال ليس طبيباً ولكنه لورد وهو من رجال السيف ولم يعالج قط صناعة الطب »

وقال الطباخ : « وكيف نميز الآن بين أطبائكم وبين اللوردات ؟ »

حار المترجم فى الاجابة على هذا السؤال . والحقيقة أن الناس متشابهون فى هذه البلاد على اختلاف أعمالهم ودرجاتهم حتى الخدم والكناسون يلبسون ثياباً كالتى يلبسها الأعيان والوجهاء . وقد هالنا اتحاد المناظر فصممنا على أن نعتصم بحبل الصبر ونفتح عيون الدهشة فى وجوه الجدة

ثم نظرنا إلى القصر الذى خصصه الشاه الانكليزى لسكنى السفارة الفارسية فقلنا إن هذا القصر لا بد أن يكون مغتصباً من أحد اللوردات لأن أى إنسان لا يسمح باعطاء مكان مثله عن طيب خاطر . وإنه ليخيل لى أن الأثاث أغلى كثيراً من البناء . وقد سألنا المترجم عمن قدم هذا القصر فقال إنه اللورد أمين الخزانة . ولست أستطيع أن أصف الأثاث قطعة قطعة ، فان كل جزء منه يحتاج فى وصفه إلى مجلد ضخم ، فالأسرة والسجاجيد وأدوات الزينة والدواليب والكراسى ، كل ذلك مما لا تقع العين على مثله . وهناك أشياء كثيرة جداً لا نعلم فائدتها ولا كيفية استعمالها

ولقد كانت الكراسى ذات أشكال مختلفة

عجيبة فبعضها له جانب واحد والبعض له جانبان والبعض ثلاثة جوانب . وبعض الكراسى ذو ظهر يصل إلى الرأس والبعض لاظهر له . أو له ظهر قصير

وهناك مناضد خاصة بالأكل وأخرى خاصة بالكتابة وأخرى للحلاقة وغيرها لغسل الوجه . وكذلك الغرف مقسمة إلى أقسام، فالذى يأكل في غرفة النوم يكون قد أتي بأمر منكر وكذلك الذى يغتسل فى غرفة النوم .

وقد حار السفير فى تخصيص مكان لجاريته الشركسية .

وعلى ذكر الشركسية أقول إننا استكشفنا أخيراً أن بعض السيدات الإنكليزيات يضمن على وجوههن نوعاً من البراقع ولكنه لايحول دون رؤية الوجه بل يقى من الغبار فقط .

وقد أتعبنا فى قصر السفارة أننا لانستطيع الاستقرار فى مكان، فاذا أردنا أن نأكل انتقلنا إلى الطابق الأرضى، وإذا أردنا أن ننام انتقلنا إلى الطابق الأعلى ، وإذا أردنا أن نعمل أو نستريح انتقلنا إلى الطابق الأوسط . وقد استنتج محمد بك أن أرض بلاد الانكليز قليلة المساحة جداً ولذلك يبنون بيوتهم من عدة طبقات، على العكس من الحال فى فارس فان أرضنا واسعة ومن أجل ذلك نبنى بيوتنا من دور واحد

وقد علمنا أكثر من ذلك أنه ليس فى انكلترا أرض زراعية ، وهذا يدل على شدة ضيق بلادهم فانهم يبنون البيوت حيث كان يجب أن تكون المزارع . وللملكية المنازل عندهم نظام غريب فهي تنتقل بالميراث إلى الابن الأكبر ولا تقسم بين الورثة ، ولعل ذلك لضمان إصلاح المنازل وترميمها لأنه عندما يتعدد الشركاء فى المنزل الواحد يتشاجرون ويتركونه بغير إصلاح . . أما الثياب والأموال فانهم يقسمونها بين الورثة فهم لا يحرصون على بقائها حرصهم على البيوت لضيق أرضهم

« يتبع » عبد اللطيف النشار

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

مصر

٥٠ السنة الأولى فى مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧